

المضمرة النسقية للأنوثة في الأمثال الشعبية الجزائرية -دراسة ثقافية-

The style of femininity in Algerian folk proverbs
-Cultural study -

د. سهام سلطاني

قسم اللغة العربية وآدابها، مخبر التراث والدراسات اللسانية

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)

Siham.Sm36@gmail.com

أ.د. عبد اللطيف حني

قسم اللغة العربية وآدابها، مخبر التراث والدراسات اللسانية

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)

تاريخ القبول: 2022/02/12

الاستلام: 2020/01/29

ملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية الحديث عن نسق الأنوثة في الأمثال الشعبية الجزائرية، حيث شغلت الأنثى حيزا هاما ضمن هذا الخزان الثقافي الكبير المعبر عن درجة وعي المجتمع ونظراته لمختلف أجزاء الحياة ومناحيها، فالأمثال الشعبية تشكل رافدا من الروافد المكرسة لبعض المظاهر الاجتماعية والفكرية، وأسلوبا من أساليب التربية والإرشاد والتوجيه المعتمدة من قبل الفرد الجزائري، في غرس القيم والأخلاق الحميدة والصفات الطيبة والنبيلة، وتعكس هذه الأمثال بدورها أنساقا ثقافية مضمرة قد تعلي من شأن الأنثى من ناحية، وقد تسفر عن تهميشها من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الأمثال؛ الشعبية؛ الجزائرية؛ الثقافة؛ النسق؛ الأنو

Summary:

This research sheet is concerned in the evocation of the feminist style in popular sayings in algerian. Indeed, the woman occupied an important context in this great cultural reserve which expresses the level of consciousness of the society and its vision on the various portions of life and on its contours. Popular sayings are indeed an affluent consecrating certain societal phenomena and other currents of

thought at the same time as a style of education and good guidance adopted by the Algerian individual to implant the values of nobility and generosity and good manners. Popular sayings also have the merit of reflecting hidden cultural styles that can elevate the status of women on one hand, as they can demean women on the other.

Keywords : Proverbs; Popularity; Algerian; culture; style; Femininity

المؤلف المرسل: سهام سلطاني، الإيميل: Siham.Sm36@gmail.com

أولا- تمهيد:

يشغل الأدب الشعبي مكانة هامة في الدراسات الفلكلورية فهو معين لا ينضب عن العطاء بميادينه المختلفة، فهو تلك الأشكال الفنية التي ابتدعتها العقلية الشعبية المبدعة متوسّلة بالكلمة الشعبية البسيطة للتعبير عن واقعها، وأحلامها، وآمالها، ولتفسير الكون والظواهر الطبيعية، وذلك لنقل تراثها الثقافي عبر الأجيال حفاظا على هذا التراث الغني الذي يعمل على تماسك الجماعة وإكسابها هويتها الثقافية.

ولعلّ الأمثال الشعبية عامة، والأمثال الجزائرية على وجه الخصوص، واحدة من بين أبرز هذه الأشكال التعبيرية التي توارثتها الأجيال عبر العصور مشكلة بذلك حلقة وصل وامتداد لعلاقة مجتمعية ترتبط بمدلولاتها الثقافية والدينية والحياتية، فالأمثال الشعبية هذا الرصيد الهائل والكنز الثمين الذي ابتدعته العقلية الشعبية من حكمة الشعوب وتجاربها عبر السنين، كانت ولا زالت تحظى بمكانة رفيعة رغم عمر بعضها الذي يمتد إلى مئات بل آلاف السنين؛ وربما السبب في ذلك راجع إلى كونها لا ترتبط بزمان ولا مكان، لتعبر عن كل واقع تصاغ فيه بطريقة خاصة لقائلها.

فهي بمثابة خلاصة للفكر الإنساني الجزائري وزبدة للتجربة البشرية التي تمر بها عبر عصورها المتلاحقة، عبرت عن حياة الناس في ظروفهم ومناسباتهم

المختلفة، وكانت رفيقة لهم في عنائهم وشقائهم وشغف عيشهم، وأنيسة لهم في رخائهم وأنسهم وسعادتهم وأصبحت تدخل في كلامهم وأحاديثهم لتؤكد صدق الحدث، وتثبت حقيقة القول وتظهر جلاء الحجة. في قالب موسيقي وأسلوب يتسم بالإيجاز ويتميز بالتداول الشفهي الذي ينتقل من جيل إلى جيل.

فقد أعطت الأمثال الشعبية للمرأة فضاء ومجالا واسعا تبرز من خلالها أهميتها وقيمتها ومكانتها ضمن المجتمع الإنساني، حملت هذه الأمثال في مضامينها أنساقا ذات أبعادا اجتماعية، وثقافية، ودينية، وتربوية وتعليمية.

إن العمل على تأكيد الحضور الأنثوي من خلال الأمثال الشعبية ومختلف التفاصيل التي تمثل العالم الأنثوي الخاص بالمرأة، يمثل إنعتاقا من أحوال المجتمع الذي يقيد حريتها بجعلها في مرتبة الهامش مقابل المركز، وهنا تتجلى معالم رؤية الآخر، كما تبرز طبيعة المرأة بما تكتنفه من حقائق وتناقضات، والتي تمثل حاجزا مغلقا على الذات الأنثوية التي تطمح بكافة الأساليب إلى التحرر من سلطة الواقع الذي تعيشه، لتتجاوز الصراع الذاتي التي تعيشه لتلج إلى صراع الدين، والثقافة، والمجتمع، وهذا ما يبرز استلاب الواقع في حياة المرأة وهامشيتها، فعكست بذلك الأمثال الشعبية واقع المرأة والمكانة التي تتبوأ بها ضمن المجتمع الإنساني لتعبر بذلك عن هويتها وذاتها المنغرس في عمق الأنا وفي الضمير الجمعي لتبرز بذلك نسق فوقيتها واستعلائها.

ثانيا- مفهوم الأمثال الشعبية:

تعد الأمثال الشعبية شكل من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، تحمل في طياتها تجارب الأمة وإبداعاتها وعصارة فكرها، لتعكس بذلك جوانب مهمة في حياة الشعوب بما توحى به من دلالات اجتماعية وثقافية، فهي مرآة لواقع الإنسان الشعبي تعكس تصورات ونظراته للحياة وفلسفة وحكمة وجوده، فتتداوله الأجيال على مر العصور عن طريق الرواية الشفوية.

لذا فقد حظيت الأمثال الشعبية باهتمام كبير من طرف الباحثين المختصين في الدراسات الشعبية، فأولوا عناية كبيرة بها وحاولوا دراستها وإضفاء الصبغة العلمية عليها في ضوء المناهج العلمية المعاصرة، وتبعاً لهذا فقد تعددت وجهات نظر الباحثين والدارسين لهذا المفهوم الشعبي.

فمن الناحية اللغوية فقد ذهب ابن منظور في معجمه لسان العرب إلى أن (م. ث. ل) «يقال هذا مثله ومثله، كما يقال شبهه وشبهه، فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسد مسده، وإذا قيل: هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة، والمثل: ما جعل مثالا أي مقدار الغيرة يحذى عليه والجمع المثل»⁽¹⁾

أما ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة فرأى بأن (م. ث. ل) «المثل والمثل أيضا كشبه وشبه والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يذكر موري به عن مثله في المعنى، وقولهم مثل به إذا نكل هو من هذا أيضا، لأن المعنى فيه أنه إذا نكل به جعل ذلك مثالا لكل من صنع ذلك الصنيع أو أراد صنعه»⁽²⁾

كما نجد الدلالة اللغوية للمثل عند الزمخشري في كتابه أساس البلاغة دلت على عدة معان منها ما يظهر في تعريفه للمثل في مادة (مثل) حيث يقول: «لي مثله ومثله ومثيله ومماثله ومثل به مثله، ومثله به: شبهه، وتمثل به تشبه به، ومثل الشيء بالشيء سوى به وقدر تقديره، نام على المثل وهو الفراش، وامثلت الأمر احتديته والمتمثل منه اقتص، وأخذ المثل القصاص»⁽³⁾

يتضح من خلال هذه التعاريف اللغوية أن المثل يشتمل على عدة معاني من أبرزها الشبه والشبيهة والمثل، فإذا قلنا فلان مثل فلان نعني أنه يشبهه أو يتساوى معه في بعض الأمور.

وقد ورد لفظ المثل في القرآن الكريم في عدة مواضع من بينها قول الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽⁴⁾ وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورُهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ (٦) يتناول المثل موضوعات متعددة متعلقة بمختلف مجالات الحياة وقد أولاه الدارسون العناية بجمعه وتصنيفه والبحث في جمالياته.

ولنا أن نستعرض مجموعة من التعاريف الاصطلاحية التي تناولت الأمثال الشعبية باعتبارها شكلا تعبيريا لتجارب الإنسان المختلفة، فتعدد بذلك موضوعاتها وتنوعت أبعادها الثقافية تبعا لأهميتها ولدورها في المجتمع الإنساني، فمن الأهمية بمكان أن نتعرف على المنطلقات أو المنابع التي ينطلق منها المثل الشعبي لمعرفة ما يستهدفه.

فقد ذهب فريدريك زايلر إلى تعريف المثل الشعبي بأنه «القول الجاري على ألسنة الشعب، الذي يتميز بطابع تعليمي، وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة» (٧)

فالمثل الشعبي يعبر في شكله الأساسي عن حقيقة مألوفة صيغت في أسلوب مختصر سهل حتى يتداوله جمهور واسع من الناس، والخاصيتان الأساسيتان في المثل إذن هما الطابع التعليمي من حيث الموضوع والاختصار، والتركيز من حيث الأسلوب، وهذا التركيز تزيده عوامل مساعدة كالجناس اللفظي والتقفية (٨).

يتضح من خلال هذا القول أن المثل يدل على واقع محسوس أو حدث معين تشكل وفق أسلوب موجز ودال، ثم انتشر بين الناس إضافة أنه يركز على خاصيتين أساسيتين هما الجانب التعليمي من حيث الموضوع، حيث أن أغلب الأمثال صالحة للدراسة، كما أنه يركز على الإيجاز في تأليفه مع استعانتة بمختلف الصور لإيضاح الفكرة التي يركز عليها.

كما نجد التلي بن شيخ يرى «أن المثل الشعبي أقدر أنواع الأدب الشعبي في التعبير عن العلاقات الاجتماعية المعقدة، لهذا فإن دراسة الأمثال الشعبية تتيح للدارسين أن يفهم طبيعة المجتمع ونفسيته كما عبر عنه في أمثاله»⁽⁹⁾

ومن هنا يمكننا القول أن المثل لا يمكن فهمه إلا بعد الرجوع إلى معرفة القصة التي سبقت المثل كما أنه يدل على معرفة الأصول التي انبثق منها المثل ومع فيه الغايات والأهداف التي يرمي إليها.

كما أن الأمثال في نظر الماوردي «لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة»⁽¹⁰⁾ وتبدو أهمية الأمثال في كونها وسيلة تربوية تعليمية لأن فيها التذكير والوعظ والحث والزجر، وتصوير المعاني تصور الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ولذلك قيل المثل أعون شيء على البيان وحسن الإفهام.

والمضمون الإنساني للأمثال يتصل بالطبائع البشرية من الخير والشر والشقاء والسعادة والفضيلة والرذيلة.

وقد ذهب قال أبو عبيد القاسم «إن الأمثال هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك خلال إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه»⁽¹¹⁾

فيما رأى السيوطي بأن «المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، وانتدروا به الممتنع من الدر ووصلوا به إلى المطالب القصية وتفرجوا به عن الكرب والمكرية، وهو من أبلغ

الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة»⁽¹²⁾، وتبدو قيمة قول السيوطي في بيان مسألة ثبات الأمثال وتداولها بين العامة من الناس.

تعتبر الأمثال الشعبية خلاصة تجارب الإنسان وخلاصة تفكيره، مصوغة في قالب موسيقي وأسلوب يتسم بالإيجاز وتتميز بالتداول الشفهي الذي يسهل من انتقالها وحفظها من جيل إلى جيل.

ويرى محمد رضا أن «الأمثال في كل قوم خلاصة تجاربهم ومحصل خبرتهم، وهي أقوال تدل على إصابة المحز وتطبيق المفصل هذا من ناحية المعنى، أما من ناحية المبنى فإن المثل الشرود يتميز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة والأمثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال، ومن هاهنا تتميز الأمثال عن الأقاويل الشعرية»⁽¹³⁾

في حين ذهب أحمد أمين بأنها «نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكتابة ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب»⁽¹⁴⁾، وهنا نجد أن أحمد أمين قد أغفل ذكر التجربة التي يعد المثل حصيلة لها ولكنه أضاف خاصية لم يذكرها محمد رضا وهي شعبية المثل.

يتبين من خلال هذا التعريف أن المثل هو جنس أدبي يعرف بلفظه الموجز وإصابته للمعنى معتمدا على توظيف عنصري التشبيه والكناية مما يزيده جمالا ودقة في المعنى والمبنى معا، كأنه نابع من كل طبقات المجتمع سواء البسيطة أو النخبة المثقفة.

والأمثال الشعبية عبارة عن قواعد محكمة البناء صاغت تجارب السلف في قوالب لفظية جميلة، وسار عليها الخلف واقتدوا بها ورأوا فيها حكمة صادقة ومعبرة جاءت نتيجة لتجربة حقيقية مر بها الناس وعاشوها في حياتهم اليومية

وعبروا عنها في أمثالهم. وقد تناقل الناس هذه الأمثال وصبغوها بصبغة المكان الذي يعيشون فيه ونطقوها باللهجة التي يتكلمون بها فأصبح المثل الواحد يختلف في تركيبه وطريقة لفظه بين منطقة وأخرى وبين فئة من الناس وأخرى، ولكن هذا التغيير لم يفقد المثل جوهره ومعناه الأصلي والهدف الذي جاء من أجله والمغزى الذي يرمي إليه.⁽¹⁵⁾

من خلال التعريفات السابقة للمثل الشعبي نخلص إلى أنه يعبر عن حدث معين بأسلوب موجز ودقيق يحمل في طياته جوانب تعليمية تربية وقيم إنسانية، كما أنه يعبر عن قصة ماضية.

ثالثا- خصائص المثل:

لكل فن خصائص تميزه عن غيره من الفنون وقد بين الباحثون سواء القدامى أو المحدثون هذه الخصائص في مؤلفاتهم، وكما سبق أن رأينا في تعريف المثل أنه ينشأ كتلخيص لحادثة في عبارة موجزة، كما أنه يضرب في جميع الحالات المتشابهة لحالته الأولى التي قيل فيه.

ويمكننا أن نستخلص خصائص المثل عند زايلر الباحث الألماني في كتابه "علم الأمثال الألمانية" الذي نشره عام 1922 فيما يلي:⁽¹⁶⁾

- أنه ذو طابع شعبي.
- ذو طابع تعليمي.
- ذو شكل أدبي مكتمل.
- يسمو عن الكلام المألوف رغم أنه يعيش في أفواه الشعب.
- كما ذكرت نبيلة إبراهيم جملة من خصائص المثل الشعبي من بينها، أنه خلاصة التجارب ومحصول الخبرة، كما أنه يحتوي على معنى يصيب التجربة والفكرة والصميم، بالإضافة إلى الإيجاز وجمال البلاغة.⁽¹⁷⁾

وهكذا نستطيع أن نقول إن الخاصية الأولى للمثل هي استخدامه للألفاظ استخداماً فنياً يبتعد عن كل تحديد لغوي، وفي وسع هذه الألفاظ أن تربط بين الأفكار ربطاً قوياً متماسكاً.

- كما أن للمثل الشعبي قدرة على صياغة السلوك الإنساني في جمل قصيرة معبرة عن الظواهر الاجتماعية والاقتصادية.

- بالإضافة إلى التعرف على ظروف الإنسان لمعرفة ثقافة الشعوب الضاربة في أعماق التاريخ.

- إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، حسن التشبيه.

- كما أنه يتحاشى أسلوب الوعظ والتوجيه فهو لا يطرح قضية خير أو شر، انتصار أو هزيمة، وإنما يضع الإنسان أمام عبء وموعظة، وبالتالي تعبر الأمثال الشعبية عن الحاجات النفسية للمجتمع.

- استمرارية وصلاحية المثل لكل زمان ومكان وارتباطه بكل الطبقات الدنيا أو الراقية.

رابعاً- مفهوم الأنساق الثقافية:

يقوم النقد الثقافي على نظرية الأنساق المضمرة، وهي عبارة عن أنساق ثقافية وتاريخية تتكون عبر البيئة الثقافية والحضارية، كما أنها تتقن الاختفاء من تحت عباءة النصوص، وعليه فالنقد الثقافي يعني بنقد الأنساق، والنسق مرتبط بكل ما هو مضمّر وخفي وغير جلي. فالنسق على وفق منظور النقد الثقافي هو نسق ثقافي يتمثل في مضمون النص الثقافي وحمولاته الثقافية، وكشف تلك الأنساق الثقافية المضمرة بحاجة إلى قراءة ثقافية ملمة بنواحي النص المدروس.

فالأنساق الثقافية حسب غريترس هي «مجموعة من ميكانزمات الضبط والتحكم مثل الخطط والوصفات الغذائية أو الطبية والتعليمات، وهو ما يسميه مهندسوا الحاسوب بالبرامج للتحكم في السلوك ولتنظيم العمليات

الاجتماعية، والنفسية، وبالقدر الذي تزودنا الأنساق الوراثة بقوالب تنظيم العمليات العضوية»⁽¹⁸⁾.

شبه غريّس عمل النسق الثقافي بقواعد وبرامج الحاسوب، من حيث أن هذه القواعد والبرامج عبارة عن مجموعة من التعليمات.

فالنص يفتح على نصوص ومعرفيات أخرى يندمج معها ليشكل بذلك أبعادا ثقافية مخزنة في بنية النصوص، وهذا ما يجعله يتقاطع مع علوم ومعارف شتى كعلمي الاجتماع والنفس، والأنثروبولوجيا، السياسة... إلخ

خامسا- نسق الأنوثة في الأمثال الشعبية:

لقد تضمن النقد الثقافي على فكرة رئيسية هي نقد الأنساق الثقافية المتضمنة في الخطابات الأدبية، والثقافية، وهي أنساق متخفية خلف أنساق أخرى ظاهرة، ونسق الأنوثة من ضمن الأنساق الثقافية المضمرة التي بحاجة إلى قراءة ثقافية واسعة ملمة بنواحي وخبايا الخطاب المدروس.

ومن أبرز ما اضطلعت إليه الأمثال الشعبية التي هي ميدان الدراسة والنقد هو نسق الأنوثة، فاشتمل الخطاب الأنثوي على صراع بين نسقين، نسق ظاهر يجعل المرأة في فوقية، ونسق مضمّر يسفر عن تهميشها مجتمعيًا، وقد اتخذت المعالجة النقدية آليات النقد الثقافي وسيلة للكشف عن تلك الأنساق والوقوف عليها من خلال هذه الأمثال الشعبية.

هذا ما يقودنا إلى القول بأن الأنوثة بالنسبة إلى الغالبية من الناس ضرب من الضعف والإمحاء والعاطفة المخنوقة والطاعة الضاربة إلى الوداعة، إنها شيء يتصف باللطف واللين، كما أن الأنوثة مستقرة وساكنة وهي شبيهة بالماء العميق، إنها تكون حياتنا الداخلية كلها وتحس بالحياة كما هي بطريقة مشخصة مباشرة وعملية ودون موارد.⁽¹⁹⁾

تعتبر الأنثى كائنًا اجتماعيًا يطمح في وظيفة اجتماعية ودور اجتماعي، أي تهدف إلى تحقيق قدر من العدالة الحقيقية داخل المجتمع الذي يحتضنها

ويكتنف وجودها، بحيث تتناول ما يطمح عليه أي إنسان من تحقيق لذاته إلى الحصول على مكانة عادلة مادية أو معنوية.

لذا تناولت الأمثال الشعبية من خلال موضوعاتها الحديث عن المرأة، وذلك نظرا لمكانتها وأهميتها في المجتمع، وبما أن المرأة قلب المجتمع وقوامه الأساس الذي يرتكز عليه كل بيت، لهذا فقد حظيت بمجال واسع واهتمام كبير في الأمثال الشعبية، وهذا راجع لدهائها وفطنتها ولتقلدها منصبا هاما ضمن المجتمع الذي أعطى لها حقها كامرأة وكبنت وكأم.

فعكست الأمثال الشعبية وضع المرأة في المجتمع ففي جانب منها قد أعلت من شأنها ومكانتها، وفي جانب آخر قد أحطت من قيمتها ونظرت لها نظرة دونية، وذلك بنسبة بعض الصفات السلبية إليها، سواء من ناحية المرأة وأخلاقها، أو في المرأة وعلاقاتها الأسرية، أو المرأة والجمال، أو المرأة والعمل...

فالأمثال الشعبية الخاصة بالمرأة تعكس صورة المجتمع، وهي صورة ترسم ملامحها وتؤطرها منظومة القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية التي تواضع عليها أفراد المجتمع.

يسوقنا هذا العنصر من الورقة البحثية إلى ذكر بعض الأمثال الشعبية المندسة في ذاكرة الأجيال والرائجة في الجزائر، والتي ذُكرت فيها المرأة، وجرت العادة أن يضرب بها أفراد المجتمع الجزائري على اختلاف أجناسهم وأعمارهم وثقافتهم المختلفة، حين يتطلب السياق ذلك، بدعوى التربية والتعليم أو التوجيه والإرشاد أو ترسيخ قيمة من القيم الإيجابية أو خصلة من الخصال النبيلة أو خلق من الأخلاق الحميدة، أو للنهي عن ما هو سلبى من القيم والأخلاق، حيث يسردها السارد في موقف يستدعي الاستدلال بها مردفا ذكرها بتعليقات وتوضيحات وربما بذكر قصة ورودها لأول مرة مسترعيا مسامع وانتباه المستمع، ومحاولا تبليغ رسالته على قدر من الفهم والإفهام. ويقال

(بالمثال يتضح المقال)، كون هذا الأخير يجلب الاهتمام ويوضّح المقصود ويمتّع الفكر بما يميزه من سجع وإيقاع وبلاغة ونغم وإيجاز وتمثيل وغير ذلك. إن عبارة الأنثى هي محور حديثنا إذ تجسد هذه العبارة مظهرين أساسيين، أحدهما استعلائي والآخر يجسد مظهر الدونية الذي تتخبط فيه المرأة فيزدوج شعورها ما بين تأنيث وتعذيب الذات الأنثوية وبين تعنيفها على مستوى وأد بعض رموزها، هذه الأنثى التي يعتبرها المجتمع الباطريكي أقل منه شأنًا ومكانة. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الميداني من خلال جمع وتدوين الأمثال الشعبية من أفواه الرواة الحافظين لكم هائل لها، مع الاستعانة بآلية التحليل والمقاربة المفككة لمقولات الأمثال الشعبية الجزائرية، وبالاعتماد بشكل أساسي في عملية النقد والتحليل على آليات النقد الثقافي، الذي يقوم على مبدأ الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة المتوارية خلف البناء اللغوي، مع دراسة المهملش من الخطابات الشعبية للكشف عن حمولتها الثقافية والمعرفية. جمعت هذه الأمثال الشعبية من ولاية الطارف الحدودية الواقعة في الشرق الجزائري، في الفترة الممتدة ما بين سنتي 2017م إلى 2019م. ومن بين هذه الأمثال الشعبية الجزائرية التي تعلي من قيمة المرأة ومكانتها ضمن المجتمع الإنساني نجد:

1- اللَّي مَا عَنْدُوشِ الْبُنَاتُ مَا عَرَفُوهُ النَّاسُ بِأَهْ مَاتُ:

وهذا مثل من الأمثال الرائجة في الجزائر عامة، وفي منطقة الطارف على وجه الخصوص، يضرب على أهمية وجود البنت في البيت، ويقدم الإناث على الذكور من الأبناء، لما تحمله البنت من عاطفة الحنان، وبحفظها لذكرى والديها أحياء وأمواتا على عكس الذكور، وفي هذا المثل قيمة تربوية مفادها ألا يتشاءم من يُبشّر بولادة بنت له كما كانت تفعل العرب في الجاهلية قديما، فالبنت تسعى لخدمة الوالدين أحياء وتذكرهم إن توفوا وتناساهم الجميع.

وبالتالي فهذا المثل يبرز نسق فوقية المرأة وأهمية وجودها في الحياة كعنصر فعال له كيانه ووجوده المستقل عن العنصر الذكوري.

فإذا ألقينا نظرة إلى تاريخ الجاهلية لاحظنا أن عملية وأد البنات كانت معروفة ومنتشرة في المجتمعات القبلية بصورة تسميز منها النفوس وتدمي القلوب، فالوآد أشد وأبشع ما اقترفته يد ظالمة في نفس بريئة طاهرة، وذلك أن يعمد الرجل إلى وليدته، وقد بدأت تستقبل الوجود وتستنشق نسيم الحياة فيقذفها في حفرة من الأرض ويهيل على جسمها التراب ثم يدعها في غمرة الموت بين طباق الأرض حتى تلقى حتفها. (20)

ونظرا لتأصل هذه العادة السيئة في نفوسهم وتعارفهم بها، فقد ورد هذا في القرآن الكريم مصداقا لقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (21) وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (22)

فعلى الرغم من مرور زمن طويل على الجاهلية، مازالت الأنثى تستقبل وهي تطلق صرخاتها الأولى في الحياة ككائن غير مرغوب فيه وما زال العديدون في معظم البلدان العربية، إن لم يكن كلها يستقبلونها بوجه مسود وهم كاظمون على عكس الذكر الذي يتلقفه الجميع في فرحة عامرة، وكأنما حمل كل الخير بمولده. (23)

ولهذا فقد جاء الدين الإسلامي ليعلي من شأن المرأة، ويصحح من مسار الأفكار الناتجة عن الديانات السابقة والتي بنيت على ضلالها أفكار الحضارات والمجتمعات لما قبل الإسلام فحافظ على حياتها بعدما كانت تدفن حية، كما حافظ على حياتها حيث كانت سلعة تباع وتشترى، ثم أمر بحفظ حياتها وعفتها وصون كرامتها.

2- الْوَلِيَّةُ وَلِيَّةٌ وَلَوْ كَانَتْ يَهُودِيَّةً:

يضرّب هذا المثل ليحسن معاملة المرأة والحفاظ عليها وصيانتها حتى، وإن كانت على غير أخلاق المسلمين، لأنها خلقت ضعيفة، وهذه القيمة التربوية من مبادئ ديننا العظيم حين حث على حسن معاملة النساء والرفق بهن، وهذا مؤصلٌ في القرآن الكريم وفي السنة النبوية.

فالنسق الديني هو أهم ما اشتمل عليه هذا المثل الشعبي الذي يعلي من قيمة المرأة مهما كانت ديانتها.

إن موقف الدين بوصفه وحيا منزلا وبوصفه دين الفطرة يعطي المرأة حقها الطبيعي، ولكن الثقافة بوصفها صناعة بشرية ذكورية تبخس المرأة حقها ذلك وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب، وهذا ما يجعل تاريخ المرأة استشهادا طويلا.⁽²⁴⁾ لقد تحولت حركة التمركز حول الأنثى من حركة تدور حول فكرة الحقوق الاجتماعية والإنسانية للأنثى إلى حركة تدور حول فكرة الهوية، فأيا كانت هوية المرأة وتوجهها الديني، فالأنثى تبقى لها مكانتها ودورها في الحياة.

3- خوذ الطّريق الصحيحة ولو دارتْ وإِدي بنت عمّك وَلَوْ بَارَتْ:

عادة ما يبدأ الزواج في المجتمع الجزائري باختيار الزوجة، واختيارها يكون من طرف الآباء فهم يحبذون تزويج أبنائهم من بنات الأعمام والأخوال، وهذا ما يعرف بزواج القرابة الذين تربط بينهم صلة الدم، حيث ساد الاعتقاد بأن ابن العم هو من يصون شرف ابنة عمه بالحفاظ على الأسرة بتكبيرها، ولعدم تفتيت الملكية أو دخول غرباء على عائلاتهم، كما يهدفون من خلاله للحفاظ على النمط الاجتماعي وعلى عاداتهم وتقاليدهم الراسخة في جذورهم، ومن الأمثال الشعبية كذلك التي دأبوا على قولها والتي تشجع على زواج الأقارب قولهم: "قَمَحْ بِلَادِي يَأْكُلُوهُ وُلَادِي".

يضرّب المثل في الحث على الزواج من الأقارب، وعدم ترك هذه العادة، من جهة لأنه سهل وربما لا يكلف كما يكلف زواج الأجنبية من الناحية المادية، ومن

جهة ثانية أن زواج الأجنبية الغربية عن العائلة قد لا يحمّد عقباه فنظام زواج الأقارب الذي كان سائدا إلى ما قبل الإسلام.

يتجسد هذا النسق في سلطة الجماعة التي تأتي بعد سلطة العادات والتقاليد والقيم، فللعادات والتقاليد الموروثة سلطة تمارس فعلها داخل المجتمع. إن أول سلطة عرفها المجتمع الجزائري هي سلطة مجلس الجماعة برئاسة شيخ القبيلة والتي جسدت وكرست للسلطة الأبوية الباطريكية والتي عززت فيما بعد سلطة الأب داخل الأسرة، من خلال تكريس هيمنة الذكورة على الأنوثة.

ويرى هشام شرابي أن النظام الأبوي يتميز بسلطة أبوية تبدأ أول ما تبدأ في العائلة بسيطة الأب البيولوجي، ثم تمتد إلى السلطة في البيئة الاجتماعية والمتجسدة في علاقات المجتمع وحضارته ككل، فتكون السلطة بذلك ظاهرة وخفية في نفس الوقت، حيث يراها الفرد ويحس بها أينما وحيثما يتوجه فهي تحكم علاقاته المباشرة وغير المباشرة، ويتميز النظام الأبوي بلغة خاصة هي لغة جماعية تنفي الفرد والوعي الذاتي، وتستبدلها بالوعي الجماعي وبالتالي فهي انعكاس للسلطة الأبوية والوعي الباطريكي، فهي تحكم علاقتنا المباشرة وغير المباشرة، وتخضعنا في أعماق أنفسنا أي الخضوع بالفكر والكلمة إزاء الثقافة الأبوية المهيمنة، وهذه الثقافة لا تفرض سلطتها فحسب، بل أيضا قيمها وتقاليدها وعاداتها خاصة في إطار زواج الأقارب الذي يضمن استمرارية وديمومة العائلة.⁽²⁵⁾

وبهذا فالمرأة كان يحكمها النسق الاجتماعي الذي يجسده هذا المثل الشعبي، والذي يحيل على مجموعة القيم والعادات والتقاليد التي لا يجب المساس بها أو تجاوزها، والتي بدورها تبرز المنبت الأصيل لهذه المرأة بالحفاظ على تماسك العائلة وتكبيرها.

4- الخَيْرُ امْرَأً وَالشَّرُّ امْرَأً:

أولى المثل الشعبي في الجزائر موضوع الزواج أهمية كبيرة تتراوح ملامحها على نسق الصورة والصورة المضادة، تتراوح بين السلبي والإيجابي، نماذج حاضرة في الذاكرة الشعبية كأنها وليدة الآني، حيث يضرب هذا المثل في الحث على اختيار الزوجة فإن بها تسعد وإلا فشقاء دائم إن أتتكم بمساوئها ونحسها، وفي هذا المثل ضرب من التطيّر المنهي عنه في ديننا الحنيف، إلا أن حسن اختيار الزوجة يبقى من الأمور المطلوبة والواجبة وقد أمرنا رسولنا الكريم بذلك في العديد من الأحاديث الشريفة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا الودود الولود)

5- المُرّا بلا صغير كالطّين بلا تَفُون:

التفون هنا هو بقايا الأواني الطينية تطحنه النساء وتضيفه للطين كي يستقيم لتشكّل منه ما تشاء من الأواني وهو جدّ ضروري، يضرب هذا المثل في حث المرأة على الإنجاب والتكاثر لأن الأولاد من أهم أسباب دوام الزواج واستمرارية الحياة، وفي هذا اثبات لوجودها وحضورها في المجتمع، ودلالة على الخصب والنماء، فالمرأة العاقر ينظر لها نظرة احتقار ونقص، بل يسعى المجتمع للتخلص منها وعزلها، فهي لا تؤدي الوظيفة المنوطة بها. وبالتالي نجد هنا نسق يجسد مرجعية الإنسان وأصله فهو خلق من طين، في المقابل يستنكر عدم إنجاب المرأة وربما حث الرجال على ترك المرأة العاقر غير الولود ونبذها والنظرة إليها بنظرة تهميشية، لأنها لم تمنح ذرية تخلد اسم الأب وتقهر خوفه من الموت الذي يضع نهاية لوجوده الفيزيقي.

6- المُرّا كي الشعيرة وين تَزْرَعُها تنبت:

شبهت المرأة في هذا المثل بحبة الشعير الذي يرمز إلى الخصوبة والأمومة التي أينما وقعت اهتزت وربت ونمت وأعطت ثمارها، وهو مثل يضرب عن أصل المرأة أو معدنها، فمهما تعدد الظروف التي توضع فيها ستكون صالحة وتنجب ما هو صالح طبعاً إن كانت سليمة معدن صافي لا تشوبه شائبة، وهذا نسق استعلائي يعلي من قيمة المرأة ومكانتها التي تتبوأ بها ضمن المجتمع الإنساني.

7- بُنْتُ الْحَلَالَ تُجِيبُكَ وَتَصُونُكَ وَبُنْتُ الْحَرَامِ تَضْرِبُ جِوْبَكَ وَتَخُونُكَ: فيضرب هذا المثل في معدن المرأة، وعلى كل من أراد الزواج أن يتخير ذات المعدن الأصيل والأخلاق الحميدة والصفات النبيلة فيها تَعْمُرُ الدار والعكس صحيح، وهذا إن دل إنما يدل على أن الجزائري وككل عربي منذ القدم يهتم لأمر المرأة وحسن اختيار شريكة حياته فعماد كل بيت زوجة صالحة أصيلة تحفظ العرض وتصونه، وبالتالي اشتمل هذا المثل على نسق الأخلاق الذي تمثل في نسقين اثنين هما نسق الحلال ونسق الحرام الذين برزت ضمنهما المرأة من حيث أفعالها الحسنة والسيئة.

خاتمة:

1- يبرز من خلال هذه القراءة الثقافية أن الأنثى اضطلعت بأدوار عديدة في الحياة الإنسانية مما جعلها تتبوأ مكانة هامة، ككائن له كيان اجتماعي، وهذا ما جعلها تتقلد كبرى المناصب لتستقل بذاتيها وتبرز كينونتها ونسق تفوقها. وهذا ما جسده المثل الشعبي "اللِّي مَا عَنْدُوْشُ الْبَنَاتُ مَا عَرَفُوْهُ النَّاسُ بِأَهْ مَا تْ" 2 – تعد الأمثال الشعبية شكلا تعبيريا لمختلف مناحي الحياة، ومجال بحثي غزير يثير العديد من القضايا والإشكالات البحثية المرتبطة بالهوية الثقافية للمجتمعات المنتجة لها.

3- أخذت المرأة حيزا واسعا في الأمثال الشعبية وسكنت مغاويرها متدرجة بين الأنثوي والمقدس، وبين الفوقية والدونية، والتي ظهرت فيها على نسق الصورة والصورة المضادة بين السلب والإيجاب. وهذا ما تجسد من خلال المثل الشعبي الذي يقول: "الْخَيْرُ امْرَأٌ وَالشَّرُّ امْرَأٌ".

4- كما تُضمَر الأمثال التي سيقَّت عن المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية عن أبعاد تربوية وتعليمية في تخريج مجموعة من الطقوس التي يختص بها المجتمع الجزائري كالشروط التي تتوفر في المرأة المبتغاة، وهي طقوس لا تتنافى في أغلبها مع ما جاء به الدين الإسلامي وحث عليه. وهذا ما وجدناه ماثلا من خلال هذا

المثل الشعبي "بُنْتُ الحلالُ تُجيبُكَ وتَصُونُكَ وبنْتُ الحرام تَضْرِبُ جِيوبَكَ وتَخُونُكَ".

5- إن تنوع الأمثال الشعبية الجزائرية وثرائها يجعلها مادة حية للدراسات الثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية بغية الكشف عن ثقافة المجتمع المعاش.

الهوامش:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، دت، مج 14، (مادة مثل)، ص 17.
- 2- أحمد بن فارس أبو الحسن، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، ج5، ص 296، 297.
- 3- أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، ص 193.
- 4- سورة النحل، الآية 60.
- 5- سورة البقرة، الآية 17.
- 6- سورة الكهف، الآية 45.
- 7- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة، مصر، القاهرة، دط، دت، ص 140.
- 8- ألكسندر هجرتي كراب، علم الفلكلور، ترجمة: رشدي صالح، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 234.
- 9- التلي بن شيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1993، ص8، 9.
- 10- علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، السعودية، ط1، 1420هـ/1999، ص 20.
- 11- المرجع نفسه، ص 21.
- 12- المرجع نفسه، ص 21.
- 13- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 139.

-
- 14- المرجع نفسه، ص 139.
- 15- صالح زيادنة، موسوعة الأمثال الشعبية، دار الهدى، فلسطين، ط1، 1435هـ/2014، ص 7.
- 16- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 140.
- 17- المرجع نفسه، ص 139.
- 18- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 97، 98.
- 19- بيير داکو، المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق، ترجمة: وجيه أسعد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1991، ص52.
- 20- عبد الله عفيفي، المرأة في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة، مصر، ط2، 1350هـ/1932، ص44.
- 21- سورة النحل، الآيتان 58، 59.
- 22- سورة التكويد، الآيتان 8، 9.
- 23- نبيل فاروق، المرأة مشكلة صنعها الرجل، المبدعون للنشر والإعلان، دط، دت، ص 25.
- 24- عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006، ص 17.
- 25- هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، دط، دت، ص16، 11.